١٢

باب طى السر

ومن بعض صفات الحب الكتمانُ باللسان ، وجحود المحب إن سُئل ، والتصنّع بإظهار الصبر ، وأنْ يُرى أنه عزهاة خلىّ . ويأبى السرُّ الدقيق ، ونارُ الكلف المتأججة فى الضلوع ، إلا ظهوراً فى الحركات والعين ، ودبيباً كدبيب النار فى لفحم ، والماء فى يبيس المدر . وقد يمكن التمويه فى أول الأمر على غير ذى الحس اللطيف ، وأما بعد استحكامه فمحال .

وربما يكون السبب فى الكتمان تصاون المحب عن أن يَسِمَ نفسه بهذه السمة عند الناس ، لأنها بزعمه من صفات أهل البطالة ، فيفرّ منها ويتفادى ، وما هذا وجه التصحيح ، فبحسب المرء المسلم أن يعفّ عن محارم الله عز وجل التى يأتيها باختياره ، ويحاسب عليها يوم القيامة . وأما استحسان الحسن وتمكّن الحب فطبع لا يؤمر به ولا يُنهى عنه ، إذ القلوب بيد مُقلّبها ، ولا يلزمه غير المعرفة والنظر فى فرق ما بين الخطأ والصواب ، وأن يعتقد الصحيح باليقين . وأما المحبة فخِلْقة ، وإنما يملك الإنسان حركات جوارحه المكتسبة .

وفى ذلك أقول :

يلومُ رجالٌ فيك لم يعرفوا الهوى ... وسيّانَ عندى فيك لاحٍ وساكتُ

يقولون : جانبتَ التصاوُنَ جُملةً ... وأنتَ عليهم بالشريعةِ قانتُ

فقلتُ لهم : هذا الرِّياءُ بِعيْنِهِ ... صُراحاً وَزَىٌّ للمرائين ماقِت

متى جاء تحريمُ الهوَى عن محمدٍ ... وهل منْعُهُ فى مُحكم الذكرِ ثابت

إذا لم أُواقِعْ مَحْرَماً أتّقِى بِهِ ... مَجِيئِى يومَ البعثِ والوجهُ باهت

فلستُ أُبالى فى الهوَى قَوْلَ لائمٍ ... سواءٌ لَعمْرِى جاهرٌ أو مُخافِت

وهل يلزمُ الإنسانَ إلا اختيارُهُ ... وهل بِجَايَا اللفظ يُؤْخَذُ صامت

• خبر :

وإنى لأعرف بعض من امتحن بشيء من هذا فسكَّنَ الوجدَ بين جوانحه ، فرام جحده إلى أن غلظ الأمر ، وعرف ذلك فى شمائله من تعرض للمعرفة ومن لم يتعرّض . وكان مَن عرض له بشيء نجهه وقبّحه ، إلى أنْ كان من أراد الحظوة لديه من إخوانه يوهمه تصديقه فى إنكاره ، وتكذيب من ظن به غير ذلك ، فسر بهذا . ولعهدى به يوما قاعداً ومعه بعض من كان يعرض له بما فى ضميره ، وهو ينتفى غاية الانتفاء ، إذا اجتاز بهما الشخص الذى كان يتهم بعلاقته ، فما هو إلا أن وقعت عينه على محبوبه حتى اضطرب ، وفارق هيئته الأولى واصفر لونه ، وتفاوتت معانى كلامه بعد حُسن تثقيف ، فقطع كلامه المتكلم معه . فلقد استدعى ما كان فيه من ذكره ، فقيل له ماعدا عما بدا . فقال : هو ما تظنون ، عذر من عذر ، وعذل من عذل .

فى ذلك أقول شعراً ، منه :

ما عاش إلا لأن الموتَ يرحمه ... مما يُرى مِن تباريحِ الضنى فيه

وأنا أقول :

دموعُ الصبِّ تَنْسَفِكُهُ ... وسِتْرُ الصبِّ ينهتكُ
كأنَّ القلب إذ يبدو ... قطاةٌ ضَمَّها شَرَكُ
فيا أصحابَنا قولوا ... فإنَّ الرأى مشتَرَكُ
إلى كَمْ ذا أكَاتِمُهُ ... وما لِى عنه مُتَّرَكُ

وهذا إنّما يعرض عند مقاومة طبع الكتمان ، والتصاون لطبع المحب وغلبته ، فيكون صاحبه متحيرا بين نارين محرقتين . وربما كان سبب الكتمان إبقاء المحب على محبوبه ، وإن هذا لمن دلائل الوفاء وكرم الطبع .

وفى ذلك أقول :

دَرَى النـاسُ أنّى فتًى عـاشقٌ ... كئيبٌ مُعنًّى ولكـن بمـنْ
إذا عاينـوا حالتِى أيقنـوا ... وإنْ فتّشوا رجعـوا فى الظّنن
كخطٍّ يُـرى رَسْمُهُ ظاهـرًا ... وإنْ طلبـوا شَرْحَه لم يَبِنْ

كصَوْتِ حَمَـــامٍ على أَيْكَـــةٍ يُرَجِّعُ بالصوْتِ فى كل فـن
تَلَـــذُّ بفحـــواهُ أسماعُنـــا ومعنـــاهُ مُسْتعجَمٌ لم يَبِن
يقولون : باللهِ سَمِّ الـــذى نَفَى حُبُّـــه عنك طِيبَ الوسَن
وهيهـــاتَ دونَ الـــذى حاولوا ذَهابُ العُقُول وخَوْضُ الفِتَن
فهم أبـــدًا فى اختلاج الشكوك بظنٍّ كَقَطْعٍ وقَطْـــعٍ كظن

وفى كتمان السر أقول قطعة ، منها :

للسرِّ عنـــدى مكانٌ لو يحلُّ بـــه حىٌّ إذَا لا اهتدى رَيْبُ المنون لَهُ
أميتُـــهُ وحيـــاةُ السرِّ مِيتَتُـــه كما سُرورُ المُعَنَّى فى الهوى انوَلَهُ

وربما كان سبب الكتمان توقِّى المُحب على نفسه من إظهار سره ، لجلالة قدر المحبوب .

• خبر :

ولقد قال بعض الشعراء بقرطبة شعرا تغزل فيه بصبح أم المؤيَّد[1] رحمه الله ، فغنّت به جارية أدخلت على المنصور محمد بن أبى عامر ليبتاعها فأمر بقتلها .

• خبر :

وعلى مثل هذا قُتل أحمد بن مُغيث[2] . واستئصالُ آلُ مُغيث ، والتسجيل

---

(١) كانت السيدة صبح ، أم هشام المؤيد ، مرتبطة عاطفياً بالمنصور بن أبى عامر ، على نحو ما أشرنا من قبل ، ويرجح أنها كانت عشيقته فى سنىّ شبابه ، وأياً ما كان الأمر ، فمن الثابت أنها كانت وراءه فى رحلة المجد التى قطعها من موظف صغير فى بلاط الخليفة ، إلى أقوى رجل فى الدولة ، ولعله أحسّ بأن فى الأبيات تعريضاً به . انظر : • الباب الأول ، الهامش رقم ١

(٢) بنو مغيث أسرة قرطبية عريقة ، تنسب إلى مغيث بن الحارث ، ويسمى مغيثا الرومى ، مولى الوليد بن عبد الملك ، ودخل الأندلس مع طارق بن زياد ، واصطلع بفتح قرطبة ، وأصبح ابنه عبد الواحد حاجباً ، أى وزيراً ، لعبد الرحمن الداخل ، ثم لهشام ابنه من بعد ، وتوفى على أيام الحكم الأول ، وخلّف أبناء ثلاثة : عبد الملك ، وعبد الكريم ، وعبد الحميد ، وقد تولوا مناصب هامة ، وبخاصة عبد الكريم ، وبقى لبيتهم جلالة إلى أمد طويل ، ويجد أخبارهم متناثرة فى :

• المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ص ٣١٧ ، ٣١٩ ، ٣٢٢ – ٣٢٤ و جـ ٤ ص ٢٢٦ .
• ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ صفحات ٤٨ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٩ ، ٧٥ ، ٨٠ ، ٨٢ .
• ابن سعيد : المغرب ، جـ ١ ص ٤٠ ، ٤٤ ، ٥٠ ، ١٥٩ .
• ابن الأبار : الحلة السيراء ، ١٣٥ ، ١٣٦ .

عليهم ألاّ يستخدم بواحد منهم أبداً ، حتى كان سبباً لهلاكهم ، وانقراض بيتهم ؛ فلم يبق منهم إلا الشريد الفالّ . وكان سبب ذلك تغزّله بإحدى بنات الخلفاء ومثل هذا كثير .

ويُحكى عن الحسن بن هانئ[٣] أنه كان مغرما بحب محمد بن هارون ، المعروف بابن زُبيدة[٤] . وأحسّ منه ببعض ذلك فانتهره على إدامة النظر إليه . فذُكر عنه أنه قال : إنّه كان لا يقدر أن يُديم النظر إليه إلاّ مع غلبة السكر على محمد .

وربما كان سبب الكتمان ألاّ يَنفِر المحبوب أو يُنفر به . فإنى أدرى من كان محبوبه له سكنا وجليساً ، لو باح بأقل سبب من أنه يهواه لكان منه مناط الثريا قد تعلّت نجومها ، وهذا ضرب من السياسة . ولقد كان يبلُغ من انبساط هذا المذكور مع محبوبه إلى فوق الغاية وأبعد النهاية ، فما هو إلا أنْ باح إليه بما يجد ، فصار لا يصل إلى التافه اليسير مع التيه ودالّة الحب ، وتمنّع الثقة بملك الفؤاد ، وذهب ذلك الانبساط ، ووقع التصنّع والتجنّى ، لقد كان أخاً فصار عبداً ، ونظيراً فعاد أسيراً ، ولوزاد فى بَوحه شيئاً إلى أن يعلم خاصة المحبوب ذلك لما رآه إلاّ فى الطيف ، ولانقطع القليل والكثير ، ولعاد عليه بالضرر .

وربما كان من أسباب الكتمان الحَياء الغالب على الإنسان ، وربما كان من أسباب الكتمان أن يرى المحب من محبوبه انحرافاً وصدّاً ، ويكون ذا نفس أبيّة ، فيستتر بما يجد لئلا يَشمت به عدو ، أو يريهم ومَن يُحب هوان ذلك عليه .

---

(٣) الحسن بن هانئ ، الشهير بأبى نواس ، الشاعر العباسى المعروف .

(٤) محمد بن هارون ، ابن هارون الرشيد من السيدة زبيدة ، وقد تولى الخلافة بعد وفاة أبيه من ٨٠٩ إلى ٨١٣ م ، ثم قتل فى صراعه مع أخيه المأمون . وانظر تفصيل هذه الأحداث فى :

• المسعودى : مروج الذهب ، جـ ٢ ص ٢٩٧ وما بعدها ، القاهرة ١٣٤٦ هـ .

١٣

باب الإذاعة

وقد تعرض فى الحب الإذاعة . وهو من مُنكَر ما يحدُث من أعراضه ، ولها أسباب ، منها :

أن يُريد صاحبُ هذا الفعل أن يتزيّا بزىّ المحبين ، ويدخل فى عدادهم ، وهذه خلافة لا تُرضى ، وتخليج بغيض ، ودعوى فى الحب زائفة .

وربما كان من أسباب الكشف غلبةُ الحب ، وتسوّر الجهر على الحياء . فلا يملك الإنسان حينئذ لنفسه صرفاً ولا عَدْلا . وهذا من أبعد غايات العشق ، وأقوى تحكّمه على العقل ، حتى يمثل الحَسن فى تمثال القبيح ، والقبيح فى هيئة الحسن ، وهنالك يرى الخير شراً ، والشر خيراً . وكم مَصون الستر ، مُسبل القِناع ، مسدول الغِطاء ، قد كشف الحبُّ سترَه ، وأباح حريمه ، وأهمل حِماه ، فصار بعد الصيانة عَلَماً ، وبعد السكون مثلا . وأحب شىء إليه الفضيحة فيما لو مثل له قبل اليوم لاعتراه النافض عن ذكره ، ولطالت استعاذته منه ، فسَهُلَ ما كان وعراً ، وهان ما كان عزيزاً ، ولان ما كان شديداً .

ولعهدى بفتى من سَرَوات الرجال ، وعِلْية إخوانى ، قد دُهِى بمحبة جارية مقصورة ، هام بها ، وقطعه حُبُّها عن كثير من مصالحه ، وظهرت آيات هواه لكل ذى بصر ، إلى أنْ كانت هى تعذله على ما ظهر منه مما يقوده إليه هواه .

* خبر :

وحدّثنى موسى بن عاصم بن عمرو[1] وقال : كنت بين يدى أبى الفتح والدى رحمه الله ، وقد أمرنى بكتاب أكتبه ، إذ لمحتْ عينى جارية كنت أكلَف بها ، فلم أملك نفسى ، ورميتُ الكتاب عن يدى ، وبادرتُ نحوها ، وبُهت أبى وظن أنه

---

(١) لم أهتد إلى أية ترجمة لهذه الشخصية ، أو للشخصيات الأخرى التى سوف ترد فى هذا الباب .

عرض لى عارض ، ثم راجعنى عقلى ، فمسحتُ وجهى ، ثم عدت واعتذرت بأنه غَلبنى الرُّعاف .

واعلم أن هذا داعيةُ نِفار المحبوب ، وفساد فى التدبير . وضعف فى السياسة ، وماشىء من الأشياء إلاّ وللمأخذ فيهُ سنّة وطريقة ، متى تعدّاها الطالب ، وأخرَق فى سلوكها . انعكس عمله عليه ، وكان كَدّه عناء ، وتعبه هباء ، وبحثه وباء . وكلما زاد عن وجه السِّيرة انحرافاً ، وفى تجنّبها إغراقاً ، وفى غير الطريق إيغالا ، ازداد عن بلوغ مراده بعداً .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

ولا تَسْعَ فى الأمرِ الجسيم تهازُئاً ... ولا تسعَ جَهراً فى اليسير تريدُهُ
وقابلْ أفانينَ الزمانِ متى يَرِدْ ... عليك فإنّ الدهرَ جَمٌّ ورُودُه
فأشكالُها من حُسْنِ سَعْيك يَكْفِكَ الـ ... ـيسيرُ بَغيرٌ والشريد شريده(٢)
ألم تبصرِ المِصْباحَ أوّلَ وَقْدِهِ ... وإشعالِهِ بالنفخِ يُطفَا وُقودُه
وإن يَتَضَرَّمْ لفحُه وطيبُهُ ... فنفخُك يُذْكيهِ وتبدو مُدودُه

* خبر :

وإنى لأعرف من أهل قرطبة . من أبناء الكتاب وجلّة الخَدَمة ، مَن اسمه أحمد بن فتح ، وكنت أعهده كثيرَ التصاون ، من بُغاة العلم ، وطلاب الأدب ، يبز أصحابه فى الانقباض ، ويفوتهم فى الدعة ، لا يُنظر إلا فى حَلقة فضل ، ولا يُرى إلا فى محفل مرضىّ ، ، محمود المذاهب ، جميل الطريقة ، باثناً بنفسه ، ذَاهباً بها ، ثم أبعدت الأقدارُ دارى من داره ، فأول خَبر طرأ علىّ بعد نزولى شاطبة ، أنه خلع عذاره فى حب فتى من أبناء الغنّائين(٣) ، يسمى إبراهيم بن أحمد ، أعرفه لا تستأهل

---

(٢) هكذا ورد هذا البيت فى الأصل .

(٣) وردت فى كل الطبعات العربية « الفتّانين » ، جمع فتّان ، أى الصائغ ، وبهذا المعنى ترجمها كل الذين نقلوا طوق الحمامة إلى لغاتهم ، وصححها ليفى بروفنسال « الغنائين » ، وتردد غومث عند ترجمته « طوق الحمامة » إلى الإسبانية ، بين أن تكون « الفتّانين » ، جمع فنان ، بمعنى المثير للفتن ، وبين تصحيح بروفنسال ، ثم ارتضاه أخيراً ، وترجمها فى النص الإسبانى : ابن أحد المغنين .

صفاته محبة مَن بيتُه خير وتقدم ؛ وأموال عريضة ، ووفْر تالد ، وصحّ عندى أنه كشف رأسه ، وأبدى وجهه ، ورمى رَسَنه ، وحسر مُحياه ، وشمّر عن ذراعيه ، وصمد صمْد الشهوة ، فصار حديثا للسمّار ، ومدافَعاً بين نقلة الأخبار ، وتُهودى ذِكره فى الأقطار ، وجرت نقلته فى الأرض راحلة بالتعجب ، ولم يحصل من ذلك إلاّ على كشف الغطاء ، وإذاعة السر ، وشُنعة الحديث ، وقبح[٤] الأحدوثة ، وشرود محبوبه عنه جملة ، والتحظير عليه من رؤيته ألبتة ، وكان غنيا عن ذلك ، وبمندوحة واسعة ، ومعزل رحب عنه ، ولو طوى مكنون سره ، وأخفى بليّات ضميره ، لاستدام لباس العافية ، ولم يُنهج بُرد الصيانة ، ولكان له فى لقاء من بُلى به ومحادثته ومجالسته أمل من الآمال ، وتعلل كاف ، وإنَّ حَبل العذر ليقطع به ، والحُجّة عليه قائمة ، إلّا أنْ يكون مختلطاً فى تمييزه ، أو مصاباً فى عقله بجليل ما فدَحه ، فربما آل ذلك لعذر صحيح ، وأمّا إنْ كانت بقية ، أو ثبتت مُسكة ، فهو ظالم فى تعرضه ما يعلم أن محبوبه يكرهه ويتأذى به .

هذا غير صفة أهل الحب ، وسيأتى هذا مفسَّراً فى باب الطاعة إن شاء الله تعالى .

ومن أسباب الكشف وجه ثالث :

وهو عند أهل العقول وجه مرذول وفعل ساقط ، وذلك أن يرى المحب من محبوبه غدرا أو مللا أو كراهة ، فلا يجد طريق الانتصاف منه إلاّ بما ضرره عليه أعود منه على المقصود من الكشف والاشتهار . وهذا أشدّ العار وأقبح الشنار ، وأقوى بشواهد عدم العقل ووجود السخف .

وربما كان الكشف من حديثٍ يَنتشر ، وأقاويل تفشو ، توافق قلة مبالاة من المحب بذلك ، ورضى بظهور سره ، إمّا لاعجاب وإمّا لاستظهار على بعض ما يؤمله ، وقد رأيت هذا الفعل لبعض إخوانى من أبناء القوّاد .

---

(٤) فى الطبعات العربية « وقح » ، ومن الواضح أنها تصحيف ، وقد أصلحناها ليستقيم المعنى .

وقرأت فى بعض أخبار الأعراب أن نساءهم لا يقنعن ، ولا يصدّقن عشق عاشق لهن حتى يشتهر ، ويكشف حبه ، ويجاهر ويعلن وينوّه بذكرهن ، ولا أدرى ما معنى هذا ، على أنه يُذكر عنهن العفاف ، وأىّ عفاف مع امرأة أقصى مُناها وسرورها الشهرة فى هذا المعنى .

obeikandl.com

١٤

باب الطاعة

ومن عجيب مايقع فى الحب طاعة المحب لمحبوبه ، وصرْفه طباعَه قسراً إلى طباع مَن يحبه . وترى المرء شَرِسَ الخلق ، صعب الشكيمة ، جموح القيادة ، ماضى العزيمة ، حميّ الأنف ، أبيّ الخسف ، فما هو إلاّ أن يتنسم نسيم الحب ، ويتورّط غمره ، ويعوم فى بحره ، فتعود الشراسة ليناً ، والصعوبة سهلة ، والمضاء كلالة ، والحمية استسلاماً .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

فهل للوصـــال إلينـــا مَعـــادُ ... وهل لتصاريف ذا الدهـــرِ حدْ
فقـــد أصبحَ السيفُ عبدَ القَضيبِ ... وأضحى الغزالُ الأسيرُ أسدْ

وأقول شعراً ، منه :

وإنّى وإنْ تَعْتِبْ لأهْـــونُ هالكٍ ... كذائبِ نُقْرِ زلّ من يـد جهْبذِ
على أنّ قتْلى فى هـــواك لـــذاذةٌ ... فيـــا عجباً مـــن هالكٍ متلذّذ

ومنهـــا :

ولو أبصرَتْ أنوارَ وجهك فـــارسٌ ... لأغناهُم عـــن هُرمزانٍ ومَوْبذ[1]

وربما كان المحبوب كارهاً لإظهار الشكوى ، متبرماً بسماع الوجد . فترى المحبّ حينئذ يكتُم حزنه ، ويكظم أسفه ، وينطوى على علته . وإنّ الحبيب مُتجنٍّ ، فعندها يقع الاعتذار عند كل ذنب ، والإقرار بالجريمة ، والمرء منها برىء ، تسليماً لقوله ، وتركاً لمخالفته . وإنى لأعرف من دُهى بمثل هذا فما كان ينفكّ من توجيه الذنوب نحوه ولا ذنب له ، وإيقاع العتاب عليه والسخط وهو نقىُّ الجلد .

وأقول شعراً إلى بعض إخوانى ، ويقرب مما نحن فيه وإن لم يكن منه :

وقد كنتَ تلقانى بوجهٍ لقُـــرْبِهِ ... تَدانٍ وللْهجرانُ عن قُرْبه سَخْطُ
وما تكرهُ العَتبَ اليسيرَ سجيّتى ... على أنّه قد عِيبَ فى الشعرِ الوخْط

---

(١) يشير إلى عبادة الفرس للنار قديماً .

فقد يُتعب الإنسانُ فى الفكر نفسَهُ وقد يَحْسنُ الخِلانُ فى الوجه والنقْط
تزين إذا قلَّتْ ، ويَفْحُشُ أمرُها إذا أفرطت يوماً ، وهل يُحمَدُ الفَرْط

ومنه :

أعِنْهُ فقد أضْحىَ لفرْطِ هُمُومِـه يُبكىِّ إذا القرطاسُ والحِبر والخَط

ولا يقولن قائل : إنّ صبر المحب على دلّة المحبوب دَناءة فى النفس ، فقد أخطأ ، وقد علمنا أن المحبوب ليس له كفواً ولا نظيراً فيقارض بأذاه ، وليس سبّه وجفاه مما يعيّر به الإنسان ، ويبقى ذكره على الأحقاب ، ولا يقع ذلك فى مجالس الخلفاء ، ولا فى مقاعد الرؤساء ، فيكون الصبر جارًّا للمذلة ، وضراعة قائدة للاستهانة ، فقد ترى الإنسان لا يكلف بأَمَته التى يملك رقّها ، ولا يحول حائل بينه وبين التعدى عليها ، فكيف الانتصارُ منها . وسبل الامتعاض من السبب غير هذه ، إنما ذلك بين عِلْية الرجال الذين تُحصى أنفاسهم ، وتُتَبع معانى كلامهم ، فتُوجّه لها الوجوه البعيدة ، لأنهم لا يوقعونها سدى ، ولا يُلقونها هملا ، وأما المحبوب فصَعْدة ثابتة ، وقضيب مُنآد ، يجفو ويرضى متى شاء لا لمعنى .

وفى ذلك أقول :

ليس التذلُّلُ فى الهـــوى يُستنكرُ فالحُبُّ فيه يَخضَـعُ المُستكبرُ
لا تعجبـوا من ذِلّتِى فى حالـةٍ قـد ذلّ فيهـا قبلىَ المُستنصر(٢)
ليس الحبيبُ مماثلاً ومُكافيـاً فيكونَ صبرُك ذِلّةً إذ تصبر
تُفّاحـةٌ وقعتْ فآلم وَقْعُهـا هل قَطْعهـا منك انتصاراً يُذْكر

---

(٢) فى الطبعات العربية « المستبصر » ، وصححها غرسية غومث المستنصر ، وترجمها كذلك ، إشارة إلى الخليفة الحكم الثانى ، وكان عاشقاً لجاريته صبح ، أم ابنه الخليفة هشام المؤيد ، وفيما بعد سوف تصبح عشيقة المنصور بن أبى عامر ، انظر :
■ الباب الأول ، الهامش رقم ١ .
■ الباب الثانى عشر ، الهامش رقم ١ .

• خبر :

وحدّثنى أبو دلف الوراق ، عن مسلمة بن أحمد الفيلسوف المعروف بالمجريطى[٣] ، أنه قال ، فى المسجد الذى بشرقىّ مقبرة قريش بقرطبة ، الموازى لدار الوزير أبى عمرو أحمد بن محمد بن حدير[٤] رحمه الله : فى هذا المسجد كان مرض مقدّم بن الأصفر أيام حداثته ، بعشق عجيب ، فتى الوزير أبى عمرو المذكور . وكان يترك

---

(٣) مسلمة المجريطى ، فلكى ورياضى أندلسى ، توفى عام ٣٩٧ هـ = ١٠٠٧ م ، ومن بين مأثور كتبه : « رسالة الاسطرلاب » و « ثمار العدد » ، وملخص لزيج البتانى سماه « تعديل الكواكب » . وله ترجمة لكتاب « قبة الفلك Planisphaerium » لبطليموس ، وقد نشرت ترجمته اللاتينية فى بازل بسويسرا عام ١٥٣٦ ، بعنوان :

Sphaerae atque astrorum coelestium ratio, natura et motus.

أى « سرعة أفلاك السماء ونجومها وطبيعتها وحركتها » ، وينسب إليه مؤلف آخر هو أقرب إلى كتب الخرافات منه إلى كتب العلم ، يسمى « غاية الحكيم وأحق النتيجتين بالتقديم » ، ويعرف فى الترجمات الإسبانية باسم « بكتاريش Pictarix » ، وهى تحريف لبقراطيش ، وهو أبقراط ، انظر :

• صاعد الأندلسى : طبقات الأمم ، ص ١٠٧ ، مطبعة السعادة ، القاهرة .

• ابن بشكوال : الصلة ، الترجمة رقم ١٣٧١ .

González Palencia, Op. Cit, p. 283.

الترجمة العربية ص ٤٤٨ ، وتاريخ الوفاة هناك خطأ وقد صححناه .

(٤) أخطأت الطبعات العربية فى كل مرة عرضت فيها لهذا الاسم ، فذكرت أنه : « الوزير ابن عمر أحمد بن محمد جدير » ، وصححته على نحو ما فى الأصل .

وبنو حدير بيت أندلسى عريق ، من البيوتات الكبرى ، التى تقاسمت المناصب العالية ، وكان لهم دور ملحوظ فى الحياة العامة طوال أيام الدولة الأموية .

كان حدير الجد الأعلى قائماً على باب السدة ، الباب الرئيسى فى قصر الإمارة فى قرطبة . على أيام الحكم الأول ، وحين اندلعت ثورة الربض عام ٢٠٢ هـ - ٨١٨ م وقضى عليها الحكم أمر حديراً أن يضرب رقاب الفقهاء الثائرين فلم يستجب له ، وتولى الحكم إعدامهم بعيداً عنه .

وولى ابنه موسى الخزانة الكبرى على أيام عبد الرحمن الأوسط .

وولى حفيد له ، موسى بن محمد بن سعيد بن موسى الحجابة ، أى رئاسة الوزارة تقريباً ، لعبد الرحمن الناصر . وتوفى ٣١٩ هـ = ٩٣١ م .

وكان أبو عمر أحمد بن محمد الذى معنا فى نص الطوق ، شقيقاً لموسى الحاجب ، وقائماً على ديوان المظالم ، أيام عبد الرحمن الناصر ، وتوفى ٣٢٧ هـ = ٩٣٩ م .

انظر أخبارهم مفرقة فى :

• ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ ١ ص ١٣٢ - ١٣٧ .

الصلاة فى مسجد مسرور وبها كان سكناه ، ويقصد فى الليل والنهار إلى هذا المسجد بسبب عجيب ، حتى أخذه الحرس غير ما مرة فى الليل ، فى حين انصرافه عن صلاة العشاء الآخرة ، وكان يقعد وينظر منه إلى أن كان الفتى يغضب ويضجر ، ويقوم إليه فيوجعه ضرباً ، ويلطم خديه وعينيه ، فيسر بذلك ويقول : هذا والله أقصى أمنيتى والآن قرّت عينى . وكان على هذا زماناً يماشيه .

قال أبو دلف : ولقد حدّثنا مسلمة بهذا الحديث غير مرة بحضرة عجيب ، عندما كان يَرى من وجاهة مقدم بن الأصفر وعَرْض جاهه وعافيته ، فكانت حال مقدم بن الأصفر هذا قد جلّت جدا ، واختص بالمظفَّر بن أبى عامر(٥) اختصاصاً شديداً ، واتصل بوالدته وأهله ، وجرى على يديه من بنيان المساجد والسقايات ، وتسهيل وجوه الخير غيرُ قليل ، مع تصرّفه فى كل ما يتصرّف فيه أصحاب السلطان من العناية بالناس وغير ذلك .

• خبر :

وأشنع من هذا أنه كانت لسعيد بن مُنذر بن سعيد(٦) ، صاحب الصلاة فى

• الخشنى : قضاة قرطبة ، ص ٨١ ، ٨٢ .

• المقرى نفح الطيب ، جـ ١ ص ٣٣٣ وما بعدها .

• ابن سعيد : المغرب ، جـ ١ ص ١٨٠ .

ولم أستطع ، فى ضوء ما لدى من مصادر ، تحديد شخصية أبى دلف الوراق ولا مقدم بن الأصفر .

(٥) المظفر ، الابن الأكبر للمنصور بن أبى عامر ، ولى الحجابة بعد أبيه ، من ١٠٠٢ إلى ١٠٠٨ م ، وسنلتقى به كثيراً عبر الكتاب ، وقد عرضنا له فى :

• الباب الثانى ، الهامش رقم ٤ ، والباب الرابع الهامش رقم ١ .

(٦) يعرض ابن حزم فى هذه الفقرة لثلاثة من أبناء منذر بن سعيد البلوطى . وكان منذر من أشهر الفقهاء والخطباء والقضاة فى عصر الخلافة . من أصل بربرى ، من فحص البلوط ، وتسمى اليوم وادى قلعة رباح Calatrava ، ورحل إلى المشرق ، حيث أمضى عامين دارساً بين مكة والقاهرة ، وعينه عبد الرحمن الناصر قاضى الجماعة فى قرطبة ، فكان شديد الصلابة فى أحكامه ، والمهابة فى أقضيته ، والقيام بالحق فى جميع ما يجرى على يده ، وظل فى منصبه هذا ١٦ عاماً ، إلى أن توفى ، وخلف ثلاثة أبناءهم :سعيد وحكم وعبد الملك . انظر :

• ابن بشكوال : الصلة ، الترجمة ٤٧٥ .

• المقرى : نفح الطيب ، جـ ١ ص ٣٤٨ وما بعدها ، و جـ ٢ ص ١٠٨ و ٢٢٣ .

Castejón Calderón Rafael : Los Juristas hispanomusulmanes, p. 153, Madrid 1948.

جامع قرطبة . أيام الحكم المستنصر بالله رحمه الله ، جارية يحبها حبا شديدا ، فعرض عليها أن يُعتقها ويتزوجها . فقالت له ساخرة به ، وكان عظيم اللحية : إنّ لحيتك أستبشع عظَمها ، فإنْ حذفْتَ منها كان ما ترغبه . فأعمل الجلمين(٧) فيها حتى لُطفت ، ثم دعا بجماعة شهود وأشهدهم على عتقها ، ثم خطبها إلى نفسه فلم ترض به . وكان فى جملة من حضر أخوه حكم بن منذر فقال لمن حضر : اعرض عليها أنىّ أخطبها أنا ، ففعل فأجابت إليه . فتزوجّها فى ذلك المجلس بعينه . ورضى بهذا العار الفادح على ورعه ونسكه واجتهاده .

فأنا أدركت سعيدا هذا ، وقد قتله البربر يوم دخولهم قرطبة عنوة ، وانتهابهم إياها(٨) وحَكَمٌ المذكور أخوه هو رأس المعتزلة بالأندلس وكبيرهم ، وأستاذهم ومتكلمهم وناسكهم ، وهو مع ذلك شاعر طيب وفقيه . وكان أخوه عبد الملك بن مُنذر متهما بهذا المذهب أيضاً . ولى خطة الرد(٩) أيام الحكم رضى الله عنه . وهو الذى صلبه المنصـــور بن أبى عامر إذ اتهمه هو ، وجماعة من الفقهاء والقضاة بقرطبة ، أنهم يُبايعون سرًّا لعبد الرحمن بن عبيد الله ابن أمير المؤمنين الناصر رضى الله عنهم ، فقُتل عبد الرحمن . وصُلب عبد الملك بن منذر ، وبدّد شمل جميع من اتهم(١٠) . وكان أبوهم قاضى القضاة منذر بن سعيد متهماً بمذهب الاعتزال أيضا . وكان أخطب

---

(٧) فى الطبعات العربية « الجملين » ، وصححتها على نحو ما فى الأصل .

(٨) كان اقتحام البرابر قرطبة عنوة ، وانتهابهم لها ، وتدميرهم لمعالمها ، فى نهاية شوال من عام ٤٠٣ هـ = مايو ١٠١٣ م ، وتعرف فى المصادر العربية بفتنة البربر ، وتسميها المصادر الأجنبية « الحرب الأهلية » ، وكانت سيئة النتائج إلى حد كبير ، وتركت فى نفس ابن حزم أثراً واضحاً ، وشكلت حياته بقوة ، وسوف أخصها بدراسة منفصلة فى كتابى قيد الطبع : « دراسات عن ابن حزم » .

(٩) فى الطبعات العربية « خطبة » وهو خطأ واضح ، وقد صححتها .

وخطة الرد أشبه ما تكون بمحاكم الاستئناف ، تعاود النظر فى أحكام القضاة إذا جدت ظروف تتطلب المراجعة ، وقد يحيل القاضى ، على صاحب خطة الرد مالا يتبين فيه وجه الحق ، وفيما بعد أدمجت فى خطة « صاحب المظالم » .

(١٠) إلى جانب التفصيلات التى أوردها ابن حزم لمعرفة المزيد عن هذه القضية ، انظر :

« ابن بسام : الذخيرة ، القسم الرابع ، المجلد الأول ، ص ٣٩ وما بعدها .

« ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص ٤٨ وما يليها ، طبعة ١٩٥٦ .

ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ص ٢٥٣ .

ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ ١ ص ٢٧٨ ٢٧٩ .

الناس وأعلمهم بكل فن ، وأورعهم وأكثرهم هزلا ودعابة .

وحَكَمُ المذكور فى الحياة ، فى حين كتابتى إليك بهذه الرسالة ، قد كُف بصره ، وأسن جدا .

* خبر :

ومن عجيب طاعة المُحب لمحبوبه أنى أعرفُ مَن كان سَهِر الليالى الكثيرة ، ولقى الجهد الجاهِد فقطَّعتْ قلبَهُ ضروب الوجد ، ثم ظفر بمن يحب وليس به امتناع ، ولا عنده دفع ، فحين رأى منه بعضَ الكراهة لما نواه تركه وانصرف عنه ، لاتعفُّفاً ولا تحَوَفاً ، لكن توقُّفاً عند مُوافقة رضاه ، ولم يجد من نفسهُ مُعينا على إتيان ما لم يَرَ له إليه نشاطاً وهو يجد ما يجد . وإنى لأعرف من فعل هذا الفعل ثم تندَّم لعـذر ظهر من المحبوب .

فقلت فى ذلك :

غافِصِ الفُرصـــةَ واعلم أنَّهـا ... كمُضىِّ البرقِ تمضى الفُرَصُ
كم أمـــورٍ أُمْكِنَتْ أمْهلُهَـا ... هِيَ عندى إذ تولَّتْ غُصَصُ
بـــادرِ الكنزَ الـــذى ألفيتَـهُ ... وانْتهـــز صَيْداً كبـازٍ يَقْنص

ولقد عرض مثلُ هذا بعينه لأبى المظفَر عبد الرحمن بن أحمد بن محمود[١١] صديقنا ، وأنشدته أبياتاً لى فطار بها كل مطار ، وأخذها منى فكانت هجيراه .

* خبر :

ولقد سألنى يوما أبو عبد الله محمد بن كليب[١٢] من أهل القيروان أيامَ كونى بالمرية[١٣] ، وكان طويل اللسان جدًّا ، مثقفاً للسؤال فى كل فن ، فقال لى ، وقد جرى

---

(١١) لم أجد أية ترجمة فيما بين يدى من مصادر لأبى المظفر عبد الرحمن بن أحمد بن محمود ، صديق ابن حزم هذا .

(١٢) لم أهتد له إلى أية ترجمة .

(١٣) فى الأصل العربى « بالمدينة » ، ولكن ابن حزم لم يعش أبداً فى مدينة قرطبة نفسها ، أو ما كان يطلق عليه اسم المدينة منها ، وإنما عاش حياته كلها فى ضواحيها ، أو بعيداً عنها ، ومن ثمّ رأى بروفنسال تصحيحها ، ورجح أن أصلها « المرية » ، وسياق النص يدعم رأيه ، ومن ثم صححتها فى الأصل .

* انظر مصور مدينة قرطبة فى القرن العاشر ، الملحق بهذا الكتاب .

بعض ذكر الحب ومعانيه : إذا كره من أحب لقائى ، وتجنب قربى فما أصنع ؟ قلت : أرى أن تسعى فى إدخال الروْح على نفسك بلقائه وإنْ كره . فقـــال : لكنّى لا أرى ذلك ، بل أوثر هواه على هواى ، ومُراده على مرادى ، وأصبر ولو كان فى ذلك الحَتف ، فقلت له : إنّى إنمّا أحببته لنفسى ، ولا لتذاذها بصورته ، فأنا أتبع قياسى ، وأقود أصلى ، وأقفو طريقتى فى الرغبة فى سرورها . فقال لى : هذا ظلم من القياس ، أشد من الموت ما تمنى به الموت ، وأعز من النفس ما بذلت له النفس . فقلت له : إنْ بذلت نفسك لم يكن اختياراً بل كان اضطراراً ، ولو أمكنك ألاّ تبذلها لما بذلتها ، وتركك لقاءه اختياراً منك أنت فيه ملوم ، لإضرارك بنفسك ، وإدخالك الحتف عليها . فقال لى : أنت رجل جدلىّ ، ولا جدل فى الحب يلتفت إليه . فقلت له : إذا كان صاحبه مؤوفا . فقال : وأى آفة أعظم من الحب .

١٥

باب المخالفة

وربما اتبع المحب شهوته ، وركب رأسه ، فبلغ شِفاءه من محبوبه ، وتعمّد مسرته منه على كل الوجوه ، سخط أو رضى . ومَن ساعده الوقت على هذا وثبت جنانه ، وأتيحت له الأقدار ، استوفى لذته جميعها ، وذهب غمه ، وانقطع همّه ، ورأى أمله ، وبلغ مرغوبه ، وقد رأيتُ مَن هذه صفتُه .

وفى ذلك أقول أبياتاً ، منها :

إذا أنـــا بَلَّغْتُ نفسِي المُنى ... مِن رَشَأٍ مازال لى مُمْرِضـــاً
فمـا أُبالى الكُرْهَ مـــن طاعةٍ ... ولا أُبالِى سَخَطاً مِـــن رِضـاً
إذا وجدتُ المـــاءَ لا بُـــدّ أنْ ... أُطفى بـــه مُشْعل جَمْرِ الغضـا

obeikandl.com

باب العاذل

وللحُب آفاتٌ .

فأولها العاذل ، والعُذّال أقسام ، فأصلهم صديق قد أسقطتَ مؤونة التحفظ بينك وبينه ، فعَذْلُه أفضل من كثير المساعدات ، وهى من الحظ والنهى ، وفى ذلك زاجر للنفس عجيب ، وتقوية لطيفة لها عرض ، وعمل ودواء تشتد عليه الشهوة ، ولا سيما إن كان رفيقاً فى قوله ، حسن التوصل إلى ما يورد من المعانى بلفظه ، عالماً بالأوقات التى يؤكّد فيها النهى ، وبالأحيان التى يزيد فيها الأمر ، والساعات التى يكون فيها وقفاً بين هذين ، على قدر ما يرى من تسهيل العاشق وتوعُّره ، وقبوله وعصيانه .

ثم عاذل زاجر لا يفيق أبداً من المَلامة ، وذلك خطب شديد وعبء ثقيل . ووقع لى مثل هذا ، وإن لم يكن من جنس الكتاب ولكنه يشبهه ، وذلك أن أبا السرى عمار بن زياد[1] صديقنا ، أكثر من عذلى على نحوٍ نَحْوْتُه ، وأعان علىّ بعض من لامنى فى ذلك الوجه أيضاً ، وكنت أظن أنه سيكون معى ، مخطئاً كنتُ أو مصيباً ، لوَكيد صداقتى ، وصحيح أُخوتى به

ولقد رأيت من اشتد وجده ، وعظم كلفه ، حتى كان العَذل أحب شىء إليه ، ليرى العاذل عصيانه ، ويستلذ مخالفته ، ويحصِّل مقاومته اللائمة ، وغلبته إياه . كالملك الهازم لعدوه ، والمجادل الماهر الغالب لخصمه ، ويُسَرُّ بما يقع منه فى ذلك ، وربما كان هذا المستجلب لعذل العاذل بأشياء يوردها توجب ابتداء العذل .

وفى ذلك أقول أبياتاً ، منها :

أُحبُّ شىءٍ إلىَّ اللـــومُ والعذلُ ... كىْ أسمعَ اسم الذى ذكراهُ لى أملُ

كأنّنى شاربٌ بالعذْل صافيـــةً ... وباسمِ مولاى بعد الشَّرْبِ أنتقل[2]

---

(١) التقينا به فى الباب الثالث ، وسنلتقى به مرات أخرى فيما بعد ، وهو شخصية لا تعرض لها المصادر التى بين أيدينا .

(٢) انتقل : أكل من النقل ، وهو ما يقدم مع الشراب من مشهيات .

١٧
باب المساعِد من الإخوان

ومن الأسباب المتمناة فى الحب أن يهب الله عز وجل للإنسان صديقاً مخلصاً ، لطيف القول ، بسيط الطول ، حسن المأخذ، دقيق المنفذ ، متمكن البيان ، مرهف اللسان ، جليل الحلم ، واسع العلم ، قليل المخالفة ، عظيم المساعفة ، شديد الاحتمال ، صابراً على الإدلال ، جم الموافقة ، جميل المخالفة ، مستوى المطابقة ، محمود الخلائق ، مكفوف البوائق ، محتوم المساعدة ، كارهاً للمباعدة ، نبيل المداخل ، مصروف الغوائل ، غامض المعانى ، عارفاً بالأمانى ، طيب الأخلاق ، سرى الأعراق ، مكتوم السر ، كثير البر ، صحيح الأمانة ، مأمون الخيانة ، كريم النفس ، نافذ الحس ، صحيح الحدس ، مضمون العون ، كامل الصون ، مشهور الوفاء ، ظاهر الغَنَاء ، ثابت القريحة ، مبذول النصيحة ، مستيقن الوداد ، سهل الإنقياد ، حسن الاعتقاد ، صادق اللهجة ، خفيف المهجة ، عفيف الطباع ، رحب الذراع ، واسع الصدر ، متخلقاً بالصبر ، يألف الإمحاض ، ولا يعرف الإعراض ، يستريح إليه ببلابله ، ويشاركه فى خلوة فقره ، ويفاوضه فى مكتوماته ، وإن فيه للمحب لأعظمَ الراحات . وأين هذا ؟ فإنْ ظفرت به يداك فشُدّهما عليه شد الضنين ، وأمسك بهما إمساك البخيل ، وصنه بطارفك وتالدك ، فمعه يكمل الأنس ، وتنجلى الأحزان ، ويقصر الزمان ، وتطيب الأحوال،ولن يفقد الإنسان من صاحب هذه الصفة عوناً جميلا ، ورأيا حسنا .

ولذلك اتخذ الملوكُ الوزراء والدخلاء كى يخفّفوا عنهم بعضَ ما حملوه من شديد الأمور ، وطوّقوه من باهظ الأحمال . ولكى يستغنوا بآرائهم ، ويستمدوا بكفايتهم . وإلاّ فليس فى قوة الطبيعة أن تقاوم كل ما يَرد عليها دون استعانة بما يشاكلها وهو من جنسها . ولقد كان بعض المحبين ، لعدمه هذه الصفة من الإخوان ، وقلّة ثقته منهم ، لما جرّبه من الناس ، وأنه لم يعدم مَن باح إليه بشىء من سرّه أحد وجهين : إمّا إزراء على رأيه ، وإما إذاعة لسره ، أقام الوحدة مقام الأنس ، وكان ينفرد فى

المكان النازح عن الأنيس ، ويناجي الهوى ، ويكلّم الأرض ، ويجد في ذلك راحة كما يجدها المريض في التأوّه ، والمحزون في الزفير ، فإن الهموم إذا ترادفت في القلب ضاق بها ، فإن لم يُنْض منها شيء باللسان ، ولم يسترح إلى الشكوى ، لم يلبث أن يهلك غمًا ويموت أسفاً .

وما رأيت الإسعاد أكثر منه في النساء ، فعندهن من المحافظة على هذا الشأن ، والتواصي بكتمانه ، والتواطؤ على طيّه إذا اطلعن عليه ، ما ليس عند الرجال ، وما رأيت امرأة كشفت سرّ متحابين إلاّ وهي عند النساء ممقوتة مستثقلة ، مرميّة عن قوس واحدة . وإنه ليوجد عند العجائز في هذا الشأن مالا يوجد عند الفتيات ، لأن الفتيات منهن ربما كشفن ما علمن على سبيل التغاير . وهذا لا يكون إلا في النُّدرة ، وأما العجائز فقد يئسن من أنفسهن فانصرف الإشفاق محضاً إلى غيرهن .

• خبر :

وإني لأعلم امرأة مُوسرة ذات جوار وخَدَم ، فشاع على إحدى جواريها أنها تعشق فتى من أهلها ويعشقها ، وأن بينهما معانى مكروهة ، وقيل لها : إن جاريتك فلانة تعرف ذلك ، وعندها جليّة أمرها ، فأخذتها ، وكانت غليظة العقوبة ، فذاقتها من أنواع الضرب والإيذاء مالا يَصبر على مثله جلداء الرجال ، ورجاء أن تبوح لها بشيء مما ذُكرها ، فلم تفعل البتة .

• خبر :

وإني لأعلم امرأة جليلة حافظة لكتاب الله عزّ وجل ، ناسكة مقبلة على الخير ، وقد ظفرت بكتاب لفتى إلى جارية كان يَكْلَف بها ، وكان في غير ملكها ، فعرّفته الأمر ، فرام الإنكار ، فلم يتهيأ له ذلك ، فقالت له : مالك ؟ ومن ذا عُصم ؟ فلا تُبال بهذا ، فو الله لا أطلعتُ على سرٍّ كما أحداً أبداً ، ولو أمكنتني أن أبتاعها لك من مالي ، ولو أحاط به كله ، لجعلتها لك في مكان تصل إليها فيه ، ولا يشعر بذلك أحد .

وإنك لترى المَرأة الصالحة المسُنَّة ، المُنقطعة الرجاء من الرجال ، وأحب أعمالها

إليها ، وأرجاها للقبول عندها ، سعيُها فى تزويج يتيمة ، وإعارة ثيابها وحَليها لعروس مُقلّة .

وما أعلم عِلّة تمكن هذا الطبعَ من النساء ، إلاّ أنّهن متفرّغات البال من كل شىء ، إلاّ من الجماع ودواعيه ، والغزل وأسبابه ، والتآلف ووجوهه ، لا شغل لهن غيره ، ولاخُلقن لسواه . والرجالُ مُقتسون فى كسب المال ، وصحبة السلطان ، وطلب العلم ، وحياطة العِيال ، ومُكابدة الأسفار ، والصيد ، وضُروب الصناعات ومُباشرة الحروب ، ومُلاقاة الفِتن ، وتحمُّل المخاوف ، وعمارة الأرض ، وهذا كله مُتحيِّف للفراغ ، صارف عن طريق البُطْل ، وقرأت فى سير ملوك السودان أنّ الملك منهم يوكِّل ثقة له بنسائه ، يلقى عليهنّ ضريبةً من غَزْل الصوف ، يشتغلن بها أبد الدهر ، لأنهم يقولون : إنّ المرأة إذا بقيت بغير شغل إنما تشوق إلى الرجال ، وتحنّ إلى النكاح .

ولقد شاهدت النساء وعلمتُ من أسرارهن مالا يكاد يعلمه غيرى ، لأنى رُبيت فى حجورهن ، ونشأت بين أيديهن ، ولم أعرف غيرَهن ، ولا جالستُ الرجال إلاّ وأنا فى حدّ الشباب ، وحين تفيّل وجهى ، وهن علمننى القرآن ، وروّينى كثيراً من الأشعار ، ودرّبنى فى الخط ، ولم يكن وُكدى ، وإعمال ذهنى مذأول فهمى ، وأنا فى سن الطفولة جدًّا ، إلاّ تعرّف أسبابهن ، والبحث عن أخبارهن ، وتحصيل ذلك . وأنا لا أنسى شيئاً مما أراه منهن ، وأصل ذلك غيرة شديدة طبعتُ عليها ، وسوء ظن فى جهتهن فُطرتُ به . فأشرفتُ من أسبابهن على غير قليل ، وسيأتى ذلك مفسراً فى أبوابه إن شاء الله تعالى .

١٨

باب الرقيب

ومن آفات الحب الرقيبُ ، وإنّه لحُمّى باطنة ، وبرسام مُلحّ ، وفكر مُكِبّ .

والرقباء أقسام :

فأولهم مُثْقِل بالجلوس ، غير متعمد ، فى مكان اجتمع فيه المرء مع محبوبه ، وعزما على إظهار شيء من سرّهما ، والبوح بوجدهما ، والانفراد بالحديث . ولقد يعرض للمُحب من القلق بهذه الصفة مالا يعرض له مما هو أشدّ منها ، وهذا وإن كان يزول سريعاً فهو عائقٌ حالَ دون المُراد ، وقَطَعَ متوقّر الرجاء .

* خبر :

لقد شاهدت يوماً مُحبَّيْنْ فى مكان قد ظنّا أنّهما انفردا فيه ، وتأهّبا للشكوى ، فاستحليا ما هما فيه من الخلوة ، ولم يكن الموضع حِمَى ، فلم يلبثا أنْ طلع عليهما مَن كانا يَستثقلانه ، فرآنى فعَدل إلىّ ، وأطال الجلوس معى ، فلو رأيتَ الفتى المحب ، وقد تمازج الأسفُ البادى على وجهه مع الغضب ، لرأيت عجباً .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

يُطيلُ جُلوساً وهـــو أثقـلُ جالسٍ ... ويُبدى حديثاً لستُ أرضى فُنونَهُ

شَمامٌ ورَضْوى واللُّكامُ وَيَـــذْبُلُ ... ولبنانُ والصَّمَّانُ والحزْنُ[1] دونه

ثم رقيب قد أحس من أمرهما بَطرف ، وتوجس من مذهبهما شيئاً ، فهو يريد أن يستبين حقيقة ذلك ، فيُدمن الجلوس ، ويطيل القعود ، ويتخفّى بالحركات ، ويُرمق الوُجوه ، ويحصّل الأنفاس ، وهذا أعدى من الحرب . وإنّى لأعرف مَن هَمّ أن يُباطِش رقيباً هذه صفته .

---

(١) فى الطبعات العربية « والحرب » ، وصححتها « والحزن » ، لتوائم المعنى ، وأعتقد أنها فى الأصل كذلك ، وأن « والحرب » تحريف من الناسخ . وقد صححها غرسية غومث كذلك ، عند ترجمته الكتاب إلى اللغة الإسبانية .

وفى ذلك أقول قطعة ، منها :

مُواصـــلٌ لا يُغِبُّ قَصْـــدًا أعْظِمْ بهـــذا الوصـــالِ غَمَّـــا
صـــارَ وصِرْنـــا لفَرْطِ مـــالا يَـــزُولُ كالاسم والمُسمَّى

ثم رقيب على المحبوب ، فذلك لا حيلةَ فيه إلاّ برضيه . وإذا أُرضِىَ فذلك غاية اللذة ، وهذا الرقيب هوالذى ذكرتْه الشعراء فى أشعارها .

ولقد شاهدتُ مَن تلطّف فى استرضاء رقيب حتى صار الرقيبُ عليه رقيباً له ، وستغافلا فى وقت التغافل . ودافعاً عنه وساعياً له .

فى ذلك أقول :

ورُبَّ رقيبٍ أَرْقبـــوه فلم يـــزلْ على سَيِّدِى عمْـــدًا لِيُبْعِدَنى عَنْهُ
فما زالتِ الألطـــافُ تحكمُ أمرَهُ إلى أنْ غـــدا خوْفِى لـــه آمِناً منه
وكان حُســـامـــاً سُـــلَّ حتى يَهُـــدَّنى فعـــادَ مُحبًّـــا مالنعمتِـــهِ كُنْـــه

وأقول قطعة ، منها :

صـــارَ حيـــاةً وكان سَهْمَ رَدىَ وكان سمًّـــا فصـــارَ دِرْيـــاقـــاً

وإنى لأعرف من رقب على بعض من كان يُشفق عليه رقيباً ، وثِق به عند نفسه ، فكان أعظمَ الآفة عليه ، وأصلَ البلاء فيه .

وأمّا إذا لم يكن فى الرقيب حيلة ، ولا وجد إلى ترضّيه سبيل ، فلا طمع إلّا بالإشارة بالعين همساً ، وبالحاجب أحياناً ، والتعريض اللطيف بالقول ، وفى ذلك مُتعة وبلاغ إلى حين يقنع به المشتاق .

وفى ذلك أقول شعراً أوّله :

على سَيِّدِى منّى رقيبٌ محـــافظٌ وفىٌّ لمـــن والاهُ ليس بناكِثِ

ومنه :

ويقطعُ أسبابَ اللُّبانةِ فى الهـوَى ويفَعلُ فيها فِعْلَ بعضِ الحوادثِ
كأنَّ لـــه فى قلبهِ ريبةَ تُـــرِى وفى كُلِّ عين مُخبرٌ بالأحادث

ومنه :

على كلِّ مَن حولِى رقيبـــانِ رُتِّبا وقد خصَّنِى ذو العرشِ منهم بثالثِ

وأشنعُ ما يكون الرقيب إذا كان ممن امتُحن بالعشق قديماً ، ودُهى به ، وطالت مدته فيه ، ثم عُرِّىَ عنه بعد إحكامه لمعانيه . فكان راغباً فى صيانة من رقّب عليه ، فتبارك الله أى رقبة تأتى منه ، وأى بلاء مصبوب يحل على أهل الهوى من جهته .

وفى ذلك أقول :

رقيبٌ طالمـــا عَـــرَفَ الغرامَـا ... وقاسى الوَجْـدَ وامْتنعَ المَنامَا
ولاقَى فى الهـــــوَى ألماً أليما ... وكاد الحُبُّ يُوردُهُ الحِمـــاما
وأتقـــنَ حيلةَ الصبِّ المُعَنَّى ... ولم يَضَعِ الإشارةَ والكلامـا
وأعْقبـــهُ التسلِّى بعـــد هـــذا ... وصـــار يرى الهوى عاراً وذَما
وصيَّر دون مَـــن أهـــوى رقيباً ... ليُبْعدَ عنـــه صَبًّا مُستهامـا
فأىُّ بَلِيَّـــة صُبَّتْ علينـــا ... وأىُّ مصيبةٍ حلَّت لـــمـا

ومن طريف معانى الرقباء أنى أعرف محبين مذهبهما واحد فى حُب محبوب واحد بعينه ، فلعهدى بهما كُل واحد منهما رقيب على صاحبه

وفى ذلك أقول :

صَبَّـــانِ هَيْمانان فى واحِـــدٍ ... كِلاهُمـــا عن خِدْنـــه مُنْحرفْ
كالكلبِ فى الآرِىِّ لا يعتلـــفْ ... ولا يُخلى العَيْرَ أنْ يعتلفْ (٢)

---

(٢) الآرى : محبس الدابة .

وقد انتقل هذا المثل إلى اللغة الإسبانية فأصبح : « ككلب الجنان ، لا يأكل ، ولا يدع سيده يأكل » .
Como el perro del hortelano que ni come ni deja comer a su amo".

١٩

باب الواشى

ومن آفات الحب الواشى ، وهو على ضربين :

أحدهما واش يريد القطع بين المتحابَّيْن فقط ، وإنّ هذا لأفترهما سوءة ، على أنه السم الذّعاف ، والصاب الممقر . والحتف القاصد ، والبلاء الوارد ، وربما لم يَنجع ترقيشه .

وأكثر ما يكون الواشى فإلى المحبوب . وأما المحب فهيهات ، حال الجَريض دون القريض ، ومنع الحَرَب من الطرب ، شغله بما هو مانع له من استماع الواشى . وقد علم الوُشاة ذلك ، وإنما يقصدون إلى الخلىّ البال ، الصائل بحوزة الملك . المتعتب عند أقل سبب .

وإنّ للوُشاة ضروباً من التنقيل .

فمنها أن يذكر للمحبوب عمن يُحب أنه غير كاتم للسر ، وهذا مكان صعب المعاناة ، بطئ البُرء إلاّ أن يوافق معارضاً للمُحب فى محبته ، وهذا أمر يوجب النفار ، فلا فرج للمحبوب إلا بأن تُساعده الأقدار بالاطلاع على بعض أسرار من يُحب ، بعد أن يكون المحبوب ذا عقل ، وله حظ من تمييز ، ثم يدعه والمطاولة . فإذا تكذب عنده نَقْل الواشى مع ما أظهر من الجفاء والتحفّظ ، ولم يسمع لسره إذاعة ، علم أنه إنما زوّر له الباطل ، واضمحل ما قام فى نفسه .

ولقد شاهدت هذا بعينه لبعض المحبين مع بعض من كان يحب ، وكان المحبوب شديدَ المراقبة عظيم الكتمان ، وكثر الوشاة بينهما حتى ظهرت أعلام ذلك فى وجهه ، وحدَث فى حُب لم يكن ، وركبته رحمة ، وأظلّته فكرة ، ودهمته حيرة ، إلى أن ضاق صدره وباح بما نقل إليه . فلو شاهدت مقام المحب فى اعتذاره ، لعلمت أن الهوى سلطان مطاع ، وبناء مشدود الأواخى ، وسنان نافذ ، وكان اعتذاره بين الاستسلام والاعتراف ، والإنكار والتوبة ، والرمى بالمقاليد ، فبعد لأْىٍ ما صَلُحَ الأمر بينهما .

وربما ذكر الواشى أن ما يظهر المُحبُّ من المحبة ليست بصحيحة ، وأنّ مذهبه

فى ذلك شفاء نفسه وبلوغ وطره . وهذا فصل وإن كان شديداً فى النقل فهو أيسر مُعاناة مما قبله ، فحالة المحب غير حالة المتلذّذ ، وشواهد الوجد متفرقة بينهما ، وقد وقع من هذا نبذ كافية فى باب الطاعة .

وربما نقل الواشى أن هوى العاشق مشترك وهذه النار المُحرقة والوجع الفاشى فى الأعضاء ، وإذا وافق الناقل لهذه المقالة أنْ يكون المُحب فتى حسن الوجه ، حُلو الحركات ، مرغوباً فيه ؛ مائلا إلى اللذات ، دنياوى الطبع ، والمحبوب امرأة جليلة القدر ، سريّة المنصب ، فأقرب الأشياء سعيها فى إهلاكه ، وتصدّيها لحتفه . فكم صريع على هذا السبب ، وكم من سُقِى السم فقطّع أمعاءه لهذا الوجه . وهذه كانت ميتة مروان بن أحمد بن حُدَيْر ، والد أحمد المتنسِّك ، وموسى وعبد الرحمن ، المعروفين بابنى لُبْنَى ، من قبل قطر الندى جاريته(١)

وفى ذلك أقول مخذراً لبعض إخوانى قطعة ، منها :

وهل يأمنُ النسوانَ غيرُ مُغفَّلٍ ... جهولٍ لأسبابِ الردَى مُتَعَرِّضِ
وكم واردٍ حوضاً من الموتِ أسودٍ ... ترشَّفهُ من طيِّبِ الطعمِ أبيضِ

والثانى واش يسعى للقطع بين المُحبين ، لينفرد بالمحبوب ويستأثره . وهذا أشد شىء وأقطعه ، وأجزم لاجتهاد الواشى واستنفاده جُهده .

ومن الوُشاة جنس ثالث ، وهو واش يسعى بهما جميعاً ، ويكشف سرّهما ، وهذا لا يُلتفت إليه إذا كان المحب مساعداً .

وفى ذلك أقول :

عجبتُ لواشٍ ظَلَّ يكشفُ أمرَنَا ... وما بِسوَى أخبارِنا يَتنفَّسُ
وماذا عليه من عَنائى ولوعتِى ... أنا آكلُ الرُّمَّانَ والوُلْدُ تَضْرِسُ(٢)

ولابد أن أورد ما يُشبه ما نحن فيه ، وإن كان خارجاً منه ، وهو شىء فى بيان التنقيل والنمائم ، فالكلام يدعو بعضه بعضاً كما شرطنا فى أول الرسالة ،

---

(١) عن بنى حدير تكلمنا فى الباب الرابع عشر ، الهامش رقم ٤ .

(٢) يعكس هذا البيت ثقافة ابن حزم الواسعة ، ومعرفته بما فى الكتب الدينية الأخرى . فالبيت مقتبس من التوراة ، ونص الفقرة هناك : الآباء أكلوا الحصرم ، وأسنان الأبناء ضرست » . انظر :
• سفر حزقيال ، الإصحاح الثامن عشر .

وما فى جميع الناس شر من الوُشاة ، وهم النّامون ، وإنّ النميمة لطبع يدُل على نتن الأصل ، ورداءة الفرع ، وفساد الطبع ، وخُبْث النشأة ، ولا بد لصاحبه من الكذب .

والنميمة فرع من فروع الكذب ونوع من أنواعه ، وكل نمّام كذّاب ، وما أحببت كذاباً قط ، وإنى لأسامح فى إخاء كلَّ ذى عَيب وإن كان عظيما ، وأكِل أمره إلى خالقه عز وجل ، وآخذ ما ظَهر من أخلاقه ، حاشى مَن أعلمه يكذب ، فهو عندى ماح لكل محاسنه ، ومُعَف على جميع خِصاله ، ومذهب كل ما فيه ، فما أرجو عنده خيراً أصلا ، وذلك لأن كل ذنب فهو يتوب عنه صاحبه ، وكل ذام فقد يمكن الاستتار به والتوبة منه ، حاشى الكذب فلا سبيل إلى الرجعة عنه ، ولا إلى كتمانه حيث كان . وما رأيت قط ، ولا أخبرنى من رأى ، كذّاباً ترك الكذب ولم يعد إليه ، ولا بدأت قط بقطيعة ذى معرفة إلاّ أن أطّلع له على الكذب ، فحينئذ أكون أنا القاصد إلى مجانبته ، والمتعرِّض لمتاركته ، وهى سِمة ما رأيتها قط فى أحد إلاّ وهو مزنون فى نفسه إليه بشق ، مغموز عليه لعاهة سوء فى ذاته . نعوذ بالله من الخذلان .

وقد قال بعض الحكماء : آخ من شئت واجتنب ثلاثة : الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرّك ، والملول فإنه أوثق ما تكون به لطول الصحبة وتأكّدها يخذلك ، والكذّاب فإنه يجنى عليك آمن ما كنت فيه من حيث لا تشعر .

وحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « حسن العهد من الإيمان » .

وعنه عليه السلام : « لا يؤمن الرجل بالإيمان كله حتى يدع الكذب فى المُزاح » .

حدّثنا بهذا أبو عمر أحمد بن محمد ، عن محمد بن على بن رِفاعة ، عن على ابن عبد العزيز ، عن أبى عبيد القاسم بن سلام عن شيوخه . والآخر منهما مُسند إلى عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضى الله عنهما .

والله عز وجل يقول : « يا أيُّها الذين آمنوا لِمَ تَقولونَ مالا تَفْعلون . كَبُرَ مَقْتاً عندَ اللهِ أنْ تَقولوا مالا تفْعلون »(٣).

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سئل : هل يكون المؤمن بَخيلا ؟ فقال :

---

(٣) سورة الصف ، الآيتان ٣ و ٤ .

نعم . قيل : فهل يكون المؤمنَ جَباناً ؟ فقال : نعم . قيل : فهل يكون المؤمن كذّاباً ؟ قال : لا » .

حدّثناه أحمد بن محمد بن أحمد ، عن أحمد بن سعيد ، عن عبيد الله بن يحيى عن أبيه ، عن مالك بن أنس ، عن صفوان بن سليم .

وبهذا الإسناد ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا خير فى الكذب فى حديث سئل فيه » .

وبهذا الإسناد عن مالك أنّه بلغه عن ابن مسعود أنه كان يقول : لا يزال العبد يكّذب وينكت فى قلبه نُكتة سوداء ، حتى يسودّ القلب ، فيُكتب عند الله من الكذابين .

وبهذا الإسناد عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : عليكم بالصدق فإنه يهدى إلى البر ، والبرّ يهدى إلى الجنة . وإياكم والكذب فإنه يهدى إلى الفجور . والفجور يهدى إلى النار » .

وروى أنه أتاه صلى الله عليه وسلم رجل فقال : يا رسول إنى أُستتر بثلاث : الخمر والزنا والكذب ، فمُرنى أيهما أترك . قال اترك الكذب فذهب منه . ثم أراد الزنا ففكّر فقال : آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسألنى : أزنيت ؟ فإنْ قلت : نعم ، حدّنى ، وإنْ قلت : لا ، نقضت العهد ، فتركه . ثم كذلك فى الخمر . فعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنى تركت الجميع .

فالكذب أصل كل فاحشة ، وجامع كل سوء ، وجالبٌ لمقت الله عز وجل ، وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال : لا إيمان لمن لا أمانة له . وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « كل الخلال يطبع عليها المؤمن إلا الخيانة والكذب » . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاث من كنّ فيه كان منافقاً : مَن إذا وعد أخلف ، وإذا حدّث كذب ، وإذا أؤتمن خان » .

وهل الكُفر إلا كذب على الله عز وجل ، والله الحق ، وهو يحب الحق ، وبالحق قامت السموات والأرض . وما رأيت أخزى من كذّاب ، وما هلكت الدول ، ولا هلكت الممالك ولا سفكت الدماء ظلماً ولا هتكت الأستار بغير النمائم والكذب ، ولا أكُدت البغضاء والإحن المردية إلاّ بنمائم لا يحظى صاحبها إلا بالمقت والخزى

والذل ، وأن ينظر منه الذى ينقل إليه ، فضلا عن غيره ، بالعين التى ينظر بها من الكلب . والله عز وجل يقول : « ويلٌ لكلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَة »(٤) ويقول جل من قائل : « يا أيُّها الذين آمَنوا إنْ جاءكم فاسقٌ بنبإٍ فَتَبيَّنوا »(٥) . فسمى النقل باسم الفسوق . ويقول : « ولا تُطِعْ كلَّ حلاَّفٍ مَهين هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بنميم . مَنَّاع للخيرِ مُعتدٍ أثيم عُتُلٍّ بعد ذلك زَنيم »(٦) والرسول عليه السلام يقول : « لا يدخل الجنة قَتَّات »(٧) ويقول : « إياكم وقاتل الثلاثة » . يعنى المنقِّل والمنقول إليه والمنقول عنه . والأحنف يقول : الثقة لا يبلِّغ ، وحق لذى الوجهين ألاَ يكون عند الله وجيهاً . وهو ما يجعله من أخسِّ الطبائع وأرذلها » .

وَلِى إلى أبى إسحاق إبراهيم بن عيسى الثقفى الشاعر رحمه الله(٨) ، وقد نقل إليه رجل من إخوانى عنى كذباً على جهة الهزل ، وكان هذا الشاعر كثيرَ الوهم ، فأغضبه وصدّقه ، وكلاهما كان لى صديقاً ، وما كان الناقل إليه من أهل هذه الصفة ، ولكنه كان كثير المُزاح جم الدعابة . فكتبت إلى أبى إسحاق ، وكان يقول بالخبر ، شعراً منه :

ولا تَتَبَدَّلْ قالـــةً قـــد سمعتُها ... تُقالُ ولا تَدرى الصحيحَ بما تدرى
كمن قد أراقَ الماءَ للآلِ إنْ بـدا ... فلاقَى الردَى فى الأفْيَحِ المَهْمَهِ القفرِ

وكتبتُ إلى الذى نقل عنى شعراً ، منه :

ولا تَزْعُما فى الجـدِّ مَزْحاً كمُولجٍ ... فسادَ علاجِ النفسِ طيَّ صلاحِها
ومن كان نَقْلُ الزورِ أمضى سلاحِه ... كمثلِ الحُبارَى تَتَّقِى بِسلاحِهـا

وكان لى صديق مرة ، وكثر التدخيلُ بينى وبينه ، حتى كدح ذلك فيه ، واستبان فى وجهه . وفى لحظه ، وطُبعتُ على التأنى والتربّص والمُسالمة ما أمكنت ، ووجدت بالانخفاض سبيلا إلى معاودة المودّة ، فكتبت إليه شعراً . منه :

---

(٤) سورة الهمزة ، الآية رقم ١ .
(٥) سورة الحجرات ، الآية رقم ٦ .
(٦) سورة القلم ، الآيات ١٠ و ١١ و ١٢ و ١٣ .
(٧) قتات : نمام .
(٨) لم أهتد إلى أية ترجمة لأبى إسحاق إبراهيم بن عيسى الثقفى .

ولى فى الـذى أُبْـدِى مرام لوانَّها بَدَتْ ما ادَّعى حُسْنَ الرمايةِ وهْرِزُ (٩)

وأقول مخاطباً لُعبيد الله بن يحيى الجزيرى(١٠) ، الذى يُحْفَظُ لعمه الرسائل البليغة ، وكان طبْع الكذب قد استولى عليه ، واستحوذ على عقله ، وألفه ألفة النفس الأمل ، ويؤكد نقله وكذبه بالأيمان المؤكّدة المُغلّظة ، مجاهراً بها ، أكذب من السراب مستهتراً بالكذب مشغوفاً به ، لا يزال يحدّث من قد صحّ عنده أنه لا يصدّقه ، فلا يزجره ذلك عن أن يحدّث بالكذب :

بدا كلُّ ما كتَمْتُهُ بينَ مُخْـبِرٍ وحالٍ أرَتْنى قُبْـحَ عَقدِكَ بَيِّنَ
وكم حالـةٍ صارتْ بَياناً بحالـةٍ كما تُثبِتُ الأحكامُ بالحَبَلِ الزنى

وفيه أقول قطعة منها :

أَنمُّ مـن المرآة فى كلِّ ما درَى وأَقطعُ بين الناسِ من قصَبِ الهْندِ
أظنُّ المنايـا والزمانَ تعلَّمـا تَحيُّلَـهُ بالقطْعِ بين ذوى الوُدّ

وفيه أيضاً من قصيدة طويلة :

وأَكْـذَبُ من حُسْنِ الظنونِ حديثُهُ وأَقْبَحُ مـن دَيْنٍ وفقـرٍ مُلازِمِ
أوامرُ ربِّ العرشِ أضْيعُ عنـدَهُ وأهـونُ من شكوَى إلى غيرِ راحمِ
تجمَّعَ فيه كلُّ خِـزْيٍ وفَضْحَـةٍ فلم يُبقِ شَتْماً فى المقال لشاتمِ

---

(٩) وهرز : قوّاس صائب الرماية ، فارسى الأصل ، كان مشهوراً بذلك فى الجاهلية .

(١٠) لا تتوفر على معلومات تساعد على تكوين فكرة واضحة عن عبيد الله بن يحيى هذا ، ولكن المصادر التاريخية تمدنا بمعلومات طيبة عن عمه أبى مروان عبد الملك بن أدريس الجزيرى ، المشار إليه فى النص ، فقد ذكر الحميدى أنه : « عالم أديب شاعر ، كثير الشعر ، غزير المادة ، معدوداً فى أكابر البلغاء ، من ذوى البديهة ، وله فى ذلك رسائل وأشعار مروية » . وكان شاعر المنصور بن أبى عامر ، ثم ابنه المظفر من بعده ، وقد سخط عليه المظفر ، واتهمه بالتآمر ، وألقى به فى السجن ، فتوفى بالمطبق فى ذى القعدة من عام ٣٩٤ هـ = ١٠٠٤ م . انظر :

- الحميدى : جذوة المقتبس ، الترجمة رقم ٦٢٤ ، طبعة القاهرة .
- ابن بشكوال : الصلة ، الترجمة رقم ٧٦٢ .
- ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ ١ ص ٢٦٦ ، و جـ ٢ ص ٢٢٤ .
- وسوف نلتقى به مرة أخرى فى الباب التاسع والعشرين من هذا الكتاب .

وأثقلُ مـــن عَذْلٍ على غيرِ قابلٍ وأبردُ برداً من مدينة سالم[١١]
وأبغضُ من بَيْنٍ وهَجـــرٍ ورِقْبـةٍ جُمِعْنَ على حَرَّانَ حَيْرانَ هائِم

وليس من نبّه غافلا ، أو نصح صديقاً ، أو حفظ مسلماً ، أو حكى عن فاسق ، أو حدّث عن عدو مالم يكن يكذب ولا يكذب ، ولا تعمد الضغائن ، منقّلاً . وهل هلك الضعفاء ، وسقط من لا عقل له ، إلاّ فى قلّة المعرفة بالناصح من النمام ، وهما صفتان متقاربتان فى الظاهر ، متفاوتتان فى الباطن ، إحداهما داء ، والأخرى دواء ، والثاقب القريحة لا يخفى عليه أمرهما ، لكن الناقل من كان تنقيله غير مرضىّ فى الديانة ، ونوى به التشتيت بين الأولياء ، والتضريب بين الإخوان ، والتحريش والتوبيش والترقيش .

فمن خاف إنْ سلك طريق النصيحة أن يقع فى طريق النميمة ، ولم يثق لنفاذ تمييزه ، ومضاء تقديره ، فيما يَرِده من أمور دنياه ، ومعاملة أهل زمانه ، فليجعل دينه دليلا له ، وسراجاً يستضيء به ، فحيثما سلك به سلك ، وحيثما أوقفه وقف . فشارع الشريعة ، وباعث الرسول عليه السلام ، ومرتّب الأوامر والنواهى ، أعلم بطريق الحق ، وأدرى بعواقب السلامة ، ومغبّات النجاة ، من كل ناظر لنفسه بزعمه ، وباحث بقياسه فى ظنه .

---

(١١) مدينة سالم Medinaceli ، مدينة كبيرة ، لا تزال تحتفظ باسمها العربى حتى يومنا هذا ، فى الطريق بين مدريد وسرقسطة ، وعلى بعد ١٣٥ ك. م. من مدريد ، وهى من أعمال مقاطعة سورية Soria ، وتدين بعمرانها إلى بربرى من قبيلة مصمودة ، يدعى سالم بن ورعمال ، وإليه تنسب ، وكان سالم ، فيما يبدو ، من كبار قادة البربر ، ودخل الأندلس فى سن مبكرة ، وقد أصبحت المدينة مركزاً عسكرياً هاماً ، وعنى بها عبد الرحمن الناصر ، وانتدب لبنائها أكبر قواده ، وبها توفى المنصور بن أبى عامر ، عام ١٠٠٢ م ، أثناء عودته من حملة قام بها ضد قشتالة Castilla ، وهى الحملة الخمسون من حملاته ، ودفن معه فى القبر الغبار الذى تجمع على درعه أثناء حملاته المتعددة ، وكان يحتفظ به لهذا الغرض ، ونقش على قبره الأبيات الآتية :

آثاره تنبيك عن أخبـــاره حتى كأنك بالعيـــان تراه
تالله لا يأتى الزمان بمثله أبداً ولا يحمى الثغور سواه

غير أن تعليق صاحب تاريخ إسبانيا المقدسة ، كان يتضح بغضاً يقول : « وفى سنة ١٠٠٢ مات المنصور ودفن فى الجحيم » .

ولقد ترددت على المدينة أكثر من مرة ، وذكرى المنصور ما تزال فى أذهان الناس ، أقاصيص وحكايات ، ولكن المدينة لا تعرف له قبراً ! .

٢٠

باب الوصل

ومن وجوه العشق الوصل ، وهو حظ رفيع ، ومرتبة سريّة ، ودرجة عالية ، وسعد طالع ، بل هو الحياة المجدّدة[١] ، والعيش السنيّ ، والسرور الدائم ، ورحمة من الله عظيمة ، ولولا أن الدنيا دار مَمَر ومحنة وكدر ، والجنة دار جزاء وأمان من المكاره ، لقلنا إنّ وصْل المحبوب هو الصفاء الذى لا كدر فيه ، والفرح الذى لا شائبة فيه ولا حزن معه ، وكمال الأمانى ، ومنتهى الأراجى .

ولقد جرّبت اللذات على تصرّفها ، وأدركت الحظوظ على اختلافها ، فما للدنوّ من السلطان ، ولا للمال المستفاد ، ولا الوجود بعد العدم ، ولا الأوْبة بعد طول الغيبة ، ولا الأمن بعد الخوف ، ولا الترَوّح على المال ، من الموقع فى النفس ، ما للوصل لا سيما بعد طول الامتناع ، وحلول الهجر ، حتى يتأجّج عليه الجوى ، ويتوقّد لهيب الشوق ، وتتضرم نار الرجاء .

وما أصناف النبات بعد غِبّ القطر ، ولا إشراق الأزاهير بعد إقلاع السحاب السواريات فى الزمان السجسج ، ولا خرير المياه المتخللة لأفانين النوّار ، ولا تأنق القصور البيض قد أحدقت بها الرياض الخضر ، بأحسن من وصل حَبيب قد رضيت أخلاقه ، وحُمدت غرائزه ، وتقابلت فى الحسن أوصافه . وإنه لمعجز ألسنة البلغاء ، ومقصّر فيه بيان الفصحاء ، وعنده تطيش الألباب ، وتعزب الأفهام .

وفى ذلك أقول :

وسائِلٍ لِىَ عمَّا لى مِـــن العُمُرِ ... وقد رأى الشيبَ فى الفوْدَيْن والعُذُر
أَجَبْتُـــهُ ساعةً لا شىءَ أحسبُه ... عُمْراً سواها بحكْمِ العقْل والنظَر

---

(١) منذ نشر بتروف ، المستشرق الروسى ، النص العربى لطوق الحمامة ، عام ١٩١٤ ، وتوالت ترجماته ، وعامة المستشرقين يقفون عند هذه الجملة لابن حزم : « الحياة المجددة » ، فقد كانت العنوان الذى أعطاه الشاعر الإيطالى دانتى Dante (١٢٢٥ - ١٣٢١ م) ، لأهم أعماله الأدبية : « الحياة المجددة La Vita Nova » . أكان مجرد التقاء فكر بين عبقريين ، أم أن الأديب الإيطالى عرف كتاب الطوق ؟ سؤال فى انتظار من يجيب عليه .

فقال لى : كيف ذا ؟ بيِّنْه لى ، فلقد أَخبرْتَنى أشنعَ الأنبـاءِ والخَبر
فقلت : إنّ التى قلبى بهـا عَلِقٌ قَبَّلْتُهـا قبلةً يوماً على خَطَر
فما أعُدُّ ولـو طالتْ سِنِيَّ سِوَى تلكَ السويعةِ بالتحقيقِ مِن عُمُرى

ومن لذيذ معانى الوصل المواعيد ، وإن للوعد المنتظر مكاناً لطيفاً من شِغاف القلب ، وهوينقسم قسمين : أحدهما الوعد بزيارة المحب لمحبوبه .

وفيه أقول قطعة ، منها :

أُسامِرُ البـدرَ لمّا أبطأتْ وأرى فى نورِه من سَنَـا إشْراقها عَرَضا
فبِتُّ مُشْترطا والوُدُّ مختلطـاً والوَصْـلُ مُنبسطاً والهجرُ مُنقبضاً

والثانى انتظار الوعد من المحب أن يزور محبوبه ، وإن لمبادئ الوصل ، وأوائل الإسعاف ، لتولّجا على الفؤاد ليس لشىء من الأشياء .

وإنى لأعرف من كان مُمتحنا بهوى فى بعض المنازل المصاقبة ، فكان يصل متى شاء بلا مانع ، ولا سبيل إلى غير النظر والمحادثة زماناً طويلا ، ليلا متى أحب ونهاراً ، إلى أن ساعدته الأقدار بإجابة ، ومكنته بإسعاد بعد يأسه لطول المدة ، ولعهدى به قد كاد أن يختلط عقله فرحاً ، وما كاد يتلاحق كلامه سروراً . فقلت فى ذلك :

برغبـةٍ لو إلى ربى دعوتُ بهـا لكان ذنبىَ عنـد اللهِ مغفـورَا
ولو دعوتُ بهـا أسْـدَ الفلا لَغَدا إضرارُها عن جميع الناسِ مقصورَا
فجاد باللثْم لى من بَعْـد مَنْعتِـهِ فاهتاجَ من لوعتى مـا كان مغمورا
كشاربِ الماءِ كى يُطْفِى الغليلَ بسه فغُصّ فانصاع فى الأجداثِ مقبورا

وقلت :

جرى الحبُّ منِّى مجرى النَفَسْ وأعطيْتُ عَينِى عِنـانَ الفَرَسْ
ولى سيّدٌ لم يـزل نافـرا ورُبَّمَا جادَ لى فى الخُلَس
فقَبَّلْتُـهُ طالِبـاً راحـةً فـزاد أليـلا بقلبى اليَبَس
وكان فـؤادى كَنَبْتٍ هَشِيمٍ يَبيسٍ رمَى فيـه رَامٍ قَبَس

ومنهـا :

ويا جوهـرَ الصينِ سُحْقاً فقـد غَنِيتُ بيـاقـوتـةِ الأندلُس

* خبر :

وإنى لأعرف جارية اشتد وجدها بفتى من أبناء الرؤساء ، وهو لا علم عنده ، وكثر غمها ، وطال أسفها ، إلى أن ضَنِيَتْ بحبه ، وهو بغرارة الصِّبى لا يشعر . ويمنعها من إبداء أمرها إليه الحياءُ منه ، لأنها كانت بكرا بخاتمها ، مع الإجلال له عن الهجوم عليه بما لا تدرى لعله لا يوافقه . فلمّا تمادى الأمر ، وكانا إلفين فى النشأة ، شكت ذلك إلى امرأة جزلة الرأى ، كانت تثق بها لتوليها تربيتها ، فقالت لها : عرِّضى له بالشعر . ففعلت المرة بعد المرة وهو لا يأبه فى كل هذا . ولقد كان لقناً ذكيا لم يظن ذلك فيميل إلى تنتيش الكلام بوهمه ، إلى أن عِيل صبرُها ، وضاق صدرها ، ولم تمسك نفسها فى قعدة كانت لها معه فى بعض الليالى منفردَيْن ، ولقد كان يعلم الله عفيفاً مُتصاوناً بعيداً عن المعاصى ، فلما حان قيامها عنه بَدرت إليه فقبلته فى فَمه ، ثم ولت فى ذلك الحين ولم تكلمه بكلمة ، وهى تتهادى فى مشيها ، كما أقول فى أبيات لى :

كأنَّهـا حين تخطو فى تأوُّدِهـــا ... قضيبُ نَرجسةٍ فى الروضِ مَيَّاسُ
كأنمّـا خُلْدُهـــا فى قلبِ عاشِقها ... ففيهِ مِن وقْعها خَطْرٌ وَوَسْواس
كأنمّـا مَشْيُها مَشْىُ الحمـــامةِ لا ... كَدٌّ يُعابُ ولا بُطءٌ بـــه باس

فبُهت وسُقط فى يده ، وفُت فى عضده ، ووجد فى كبده وعلته وجمة ، فما هو إلا أن غابت عنه ، ووقع شرك الرَّدى ، واشتعلت فى قلبه النار وتصعّدت أنفاسه ، وترادفت أوجاله وكثر قلقه ، وطال أرقه ، فما غمض تلك الليلة عيناً ، وكان هذا بدء الحب بينهما دهراً ، إلى أن جذت جملتها يدُ النوى ، وإن هذا لمن مصائد إبليس ، ودواعى الهوى التى لا يقف لها أحد ، إلاّ من عصمه الله عزوجل .

ومن الناس من يقول : إنّ دوام الوصل يُودى بالحب ، وهذا هجين من القول ، إنما ذلك لأهل الملل ، بل كلما زاد وصلا زاد اتصالا .

وعنى أخبرك أنى ما رويتُ قط من ماء الوصل ولا زادنى إلا ظمأ . وهذا حكمُ من تداوى برأيه وإن رقّه عنه سريعاً . ولقد بلغتُ من التمكن بمن أحبَّ أبعد الغايات التى لا يجد الإنسان وراءها مرمى ، فما وجدتُنى إلا مستزيداً ، ولقد طال بى ذلك فما

أحسست بسآمة ولا رهقتنى فترة .

ولقد ضمّنى مجلس مع بعض من كنتُ أحب ، فلم أجل خاطرى فى فن من فنون الوصل ، إلاّ وجدته مقصراً عن مرادى ، وغير شاف وجْدى ، ولا قاض أقل لبانة من لباناتى ، ووجدُتنى كلما ازددت دُنوًّا ازددتُ ولوعا ، وقدحتْ زناد الشوق نار الوجد بين ضلوعى ، فقلت فى ذلك المجلس :

وَدِدْتُ بأنَّ القلبَ شُقَّ بمُديـــةٍ وأُدخلتِ فيهِ ثمّ أُطبِقَ فى صَدْرِى
فأصبحتِ فيه لا تحلِّينَ غـــيرَه إلى مُقْتضى يومِ القيامةِ والحَشْرِ
تعيشينَ فيــه ما حييتُ فإنْ أَمُتْ سكنْتِ شغافَ القلبِ فى ظُلَمِ القبرِ

وما فى الدنيا حالة تعدل محبّيْن إذا عدما الرقباء ، وأمنا الوشاة ، وسلما من البيْن ، ورغبا عن الهجر ، وبَعُدا عن الملل ، وفقدا العذّل ، وتوافقا فى الأخلاق ، وتكافيا فى المحبة ، وأتاح الله لهما رزقاً دارّا ، وعيشاً قارّا ، وزماناً هادياً ، وكان اجتماعُهما على ما يرضى الرّب من الحال ، وطالت صُحبتهما ، واتصلت إلى وقتُ حلول الحِمامِ الذى لا مردّ له ، ولا بد منه . هذا عطاء لم يحصُل عليه أحد ، وحاجة لم تُقض لكل طالب ، ولولا أنّ مع هذه الحال الإشفاق من بغتات المقادير المحكمة فى غيب الله عزوجل ، من حُلول فراق لم يكتسب ، واختزام منية فى حال الشباب أوما أشبه ذلك ، لقلت إنها حال بعيدة من كل آفة ، وسليمة من كل داخلة .

ولقد رأيتُ مَن اجتمع له هذا كله ، إلاّ أنه كان دُهى فيمن كان يحبه بشراسة الأخلاق ، ودالّة على المَحبة ، فكانا لا يتهنّيان العيش ، ولا تطلع الشمس فى يوم إلاّ وكان بينهما خلاف فيه ، وكلاهما كان مطبوعاً بهذا الخُلق ، لثقة كل واحد منهما بمحبة صاحبه ، إلى أن دنت النوى بينهما فتفرّقا بالموت المرتب لهذا العالم .

وفى ذلك أقول :

كيف أذُمُّ النـــوَى وأظْلِمُهَا وكلُّ أخلاقِ مَن أُحِبُّ نَـــوَى
قــد كان يَكفى هــوًى أضيقُ به فكيفَ إذْ حَلَّ بِى نَوىً وهَــوَى

وروى عن زياد بن أبى سفيان رحمه الله أنه قال لجُلسائه : من أنعم الناس عيشة ؟ قالوا : أمير المؤمنين . فقال : وأين ما يلقى من قريش ؟ قيل ؟ فأنت . قال أين ما ألقى من الخوارج والثغور ؟ قيل فمن أيها الأمير. قال : رجلٍ مُسلم ، له زوجة

مسلمة ، لهما كفاف من العيش ، قد رضيت به ورضى بها ، لا يعرفنا ولا نعرفه .

وهل فيما وافق إعجاب المخلوقيْن ، وجلا القلوب ، واستمال الحواس ، واستهوى النفوس ، واستولى على الأهواء ، واقتطع الألباب ، واختلس العقول ، مستحسن يعدل إشفاق مُحب على محبوب .

ولقد شاهدت من هذا المعنى كثيراً ، وإنه لمن المناظر العجيبة الباعثة على لرقة ، الرائقة المعنى ، لا سيما إن كان هوى يتكتّم به . فلو رأيتَ المحبوبَ حين يعرض بالسؤال عن سبب تغضّبه بمحبِّه ، وخجلته فى الخروج مما وقع فيه بالاعتذار ، وتوجيهه إلى غير وجهه ، وتحيّله فى استنباط معنى يُقيمه عند جلسائه ، لرأيت عجباً ، ولذة مخفيّة لا تقاومها لذة ، وما رأيت أجلب للقلوب ، ولا أغوص على حياتها ، ولا أنفذ للمقاتل من هذا الفعل ، وإنّ للمُحبين فى الوصل من الاعتذار ما أعجزَ أهلَ الأذهان الذكيّة ، والأفكار القوية .

ولقد رأيت فى بعض المرات هذا فقلت :

إذا مزجتَ الحــقَّ بالبــاطلِ ... جوزتَ ما شئتَ على الغافلِ
وفيهما فــرْقٌ صحيــحٌ لــه ... علامةٌ تبــدو إلى العاقل
كالتِّبر إنْ تمزجْ به فِضَّــة ... جازتْ على كلِّ فتىً جاهل
وإنْ تُصادِفْ صائغــاً ماهراً ... ميَّز بَيْنَ المحْضِ والحــائل

وإنى لأعلم فتى وجارية ، وكان يكلف كل واحد منهما بصاحبه ، فكانا يضطجعان إذا حضرهما أحد ، وبينهما المُسند العظيم من المساند الموضوعة عند ظهور الرؤساء على الفرش ، ويلتقى رأساهما وراء المسند ، ويقبِّل كل واحد منهما صاحبه ولا يُريان ، وكأنهما إنما يتمددان من الكلل . ولقد كان بلغ من تكافيهما فى المودة أمراً عظيماً ، إلى أن كان الفتى المُحب ربما استطال عليها .

وفى ذلك أقول :

ومِن أعاجيبِ الــزمــانِ التى ... طمَّتْ على السامعِ والقائلِ
رَغبــةُ مَركــوبٍ إلى راكبٍ ... وذِلّــةُ المسؤولِ للســائــل
وطَــولُ مأســورٍ إلى آسرٍ ... وصَوْلــةُ المَقتــولِ للقاتــل

ما إنْ سمعنَا فى الوَرَى قبلَهَا خُضوعَ مأمولٍ إلى آمل
هل هَاهُنَا وجهٌ تراه سِوى تواضع المَفعولِ للفاعل

ولقد حدثتنى امرأة أثق بها أنها شاهدت فتى وجارية ، كان يَجد كل واحد منهما بصاحبه فضل وجد ، اجتمعا فى مكان على طرب ، وفى يد الفتى سكين يقطع بها بعض الفواكه ، فجرَّها جرًّا زائداً فقطع إبهامه قطعاً لطيفاً ظهر فيه دم ، وكان على الجارية غلالة قصب خزائنية لها قيمة ، فصرفت يدها وخرقتها ، وأخرجت منها فضلة شد بها إبهامه . وأما هذا الفعل للمحب فقليل فيما يجب عليه ، وفرض لازم وشريعة مؤداة ، وكيف لا وقد بذل نفسه ووهب روحه فما يمنع بعدها .

• خبر :

وأنا أدركت بنت زكريا بن يحيى التميمى المعروف بابن برطال ، وعمها كان قاضى الجماعة بقرطبة محمد بن يحيى ، وأخوها[٢] الوزير القائد ، الذى كان قتله غالبٌ وقائدين له فى الوقعة المشهورة بالثغور ، وهما مروان بن أحمد بن شهيد ، ويوسف ابن سعيد العكّى ، وكانت متزوجة بيحيى بن محمد ، ابن الوزير يحيى بن إسحاق[٣] .

---

(٢) فى الأصل ، وفى الطبعات العربية « وأخوه » ، وقد صححها ليفى بروفنسال فى ضوء المراجع التاريخية « وأخوها » ، والهامش التالى يزيد الأمر وضوحاً .

(٣) • يحيى بن زكريا التميمى ، يعرف بابن برطال ، كان والد بريهة أم المنصور بن أبى عامر ، وكان ابنه زكريا ، خال المنصور ، قاضياً على بطليوس وباجة ، فى أيام الخلفاء الأول ، وتوفى عام ٣٥٩ هـ = ٩٦٩ م .

• وكان ابنه الثانى محمد قاضى الجماعة فى قرطبة ، من ٣٨١ هـ = ٩٩١ م إلى ٣٩٢ هـ = ١٠٠١ م ، ثم ظهر اختلاله لكبر سنه ، فتخوف منه المنصور ، فنقله من القضاء إلى الوزارة ، ولكن ما لبث أن توفى عام ٣٩٤هـ = ١٠٠٤ م .

• أما الوزير القائد الذى أشار إليه نص « طوق الحمامة » دون أن يذكر اسمه ، فقد كان أخاً لبنت زكريا التى يتحدث عنها ابن حزم ، وليس أخا القاضى كما يفهم من النص قبل تصحيحه . والمعركة التى يشير إليها ابن حزم ، وقعت عام ٣٧٠ هـ = ٩٨١ م ، بين المنصور بن أبى عامر وغالب بن عبد الرحمن ، من قواد الحكم الثانى .

• ويحيى بن إسحاق كان من قواد عبد الرحمن الناصر .

• أما القائدان الآخران ، مروان بن أحمد بن شهيد ويوسف بن سعيد العكى ، فلم اهتد لهما إلى ترجمة فيما بين يدى من مصادر . انظر :

• ابن سعيد : المغرب ، جـ ١ ص ٢١٥ .

• ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ ١ ص ٢٧٥ .

فعاجلته المنية وهما فى أغض عيشهما ، وأنضر سرورهما ، فبلغ من أسفها عليه أن باتت معه فى دثار واحد ليلة مات ، وجعلته آخر العهد به وبوصله ، ثم لم يفارقها الأسف بعده إلى حين موتها .

وإن للوصل المختلس الذى يُخاتل به الرقباء ، ويحتفظ به من الحضر ، مثل الضحك المستور ، والنحنحة ، وجولان الأيدى ، والضغط بالأجناب ، والقرص باليد والرجل ، لموقعاً من النفس شهياً .

وفى ذلك أقول :

إنّ للوصْـــل الخفىِّ مَحَـلاًّ ... ليس للوصلِ المكينِ الجلىِّ
لـــذَّةً تمزجُهَـــا بارتقـــابٍ ... كمسير فى خـــلالِ النقىِّ

* خبر :

ولقد حدثنى ثقة من إخوانى جليل من أهل البيوتات ، أنه كان علق فى صباه جارية كانت فى بعض دُور آله ، وكان ممنوعا منها فهام عقله بها . قال لى : فنزهنا يوماً إلى بعض ضياعنا بالسهلة ، غربى قرطبة ، مع بعض أعمامى ، فتمشينا فى البساتين ، وأبعدنا عن المنازل ، وانبسطنا على الأنهار ، إلى أن غيمت السماء وأقبل الغيث ، فلم يكن بالحضرة من الغطاء ما يقى الجميع . قال : فأمر عمى ببعض الأغطية فألقى علىّ ، وأمرها بالاكتنان معى ، فظُنّ بما شئت من التمكن على عين الملأ وهم لا يشعرون ، وبالك من جمع كخلاء ، واحتفال كانفراد . قال لى فوالله لا نسيت ذلك اليوم أبدا . ولعهدى به ، وهو يحدثنى بهذا الحديث وأعضاؤه كلها تضحك ، وهو يهتز فرحاً على بعد العهد وامتداد الزمان . فى ذلك أقول شعراً منه :

يضحكُ الروضُ والسحائبُ تبكِى ... كحبيبٍ رآه صَبٌّ مُعَنّى

---

* ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ، الترجمة رقم ٤٤٩ ، ورقم ١٣٨٨ .
* النباهى : المرقبة العليا ، ص ٨٤ ، طبعة القاهرة .
* Lévi - Provençal, Espana musulmana, trad. espanola, en Historia de Espana, tomo IV, p. 416, Madrid 1957.
* Dozy R. : Histoire des Musulmans d'Espagne, trad, espanola, tomo 2, p. 140 ss. Buenos Aires 1946.

• خبر :

ومن بديع الوصل ما حدثنى به بعض إخوانى أنه كان فى بعض المنازل المصاقبة له هوى ، وكان فى المنزلين موضع مطلع من أحدهما على الآخر . فكانت تقف له فى ذلك المَوضع ، وكان فيه بعض البعد ، فتسلم عليه ويدها ملفوفة فى قميصها . فخاطبها مستخبراً لها عن ذلك ، فأجابته : إنه ربما أحس من أمرنا شيء . فوقف لك غيرى فسلم عليك . فرددت عليه ، فصح الظن ، فهذه علامة بينى وبينك . فإذا رأيت يداً مكشوفة تشير نحوك بالسلام فليست يدى فلا تجاوب .

وربما استُحْلِى الوصال ، واتفقت القلوب ، حتى يقع التخلّج فى الوصال . فلا يُلتفت إلى لائم ، ولا يُستتر من حافظ ، ولا يُبالى بناقل ، بل العذل حينئذ يُغرى .

وفى صفة الوصل أقول شعراً ، منه :

كم دُرْتَ حوْلَ الحُبِّ حتى لقدْ ... حَصلْتَ فيه كُحصُولِ الفراشْ

ومنه :

تَعْشُو إلى الوصْلِ دواعِى الهَوى ... كما سَرَى نحو سنا النارِ عاشْ

ومنه :

علَّلَنِى بالوصل مِن سيِّدى ... كمثْلِ تَعْليلِ الظماء العطاشْ

ومنه :

لا تُوقفِ العينَ على غايةٍ ... فالحُسنُ فيه مُستزيدٌ وباشْ

وأقول من قصيدة لى :

هل لقتيلِ الحبِّ مِن وَادى ... أمْ هل لعانى الحبِّ من فادِى

أم هل لدهرى عودةٌ نحوَهَا ... كمثْلِ يومٍ مَرَّ فى الوادى

ظللتُ فيه سابحاً صادياً ... يا عجباً للسابحِ الصادى

ضَنَنْتُ يا مولاىَ وَجْداً فما ... تَبْصرُنى ألحاظُ عُوَّادى

كيف اهتدى الوجدُ إلى غائبٍ ... عن أعينِ الحاضِرِ والبادِى

مَلَّ مُداواتى طبيبى فقدْ ... يَرْحمنى للسُّقْمِ حُسَّادى